كلمة أخرى

للأستاذ محمود محمد شاكر

قرأت كلمة الأستاذ محمد العربي العلمي في عدد الرسالة (٧٥٩) يردّ على ما كتبته في قضية الاستقلال الذي تطالب به بلاد المغرب ، ومن حق الأستاذ أن يردّ ، ومن حقه أن يعلمني ما أجهل ، ومن حقه أن يرشدني إلى وجه الصواب فيما زعمت أو رأيت ، كلّ هذا من حقه ، ولكن ليس من حقه أن يخرج الكلام عن جادّته ، أو أن يستنبط منه أشياء ليست فيه كقوله إني عرضت للوطنيين من أهل المغرب « فنّهمت زعماءهم وأهل الرأي فيهم بالسفه والغفلة والتخاذل والتهاون في حقوق البلاد أو ما يشبه ذلك من أنواع التهم » . فهذا شيء مردُّه إلى ما كتبتُ لا إلى ما يقول به الأستاذ العلمي . والسفه والغفلة وما يشبه ذلك من أنواع التهم ا ا كلمات كبيرة لا يحلّ للأستاذ أن يدّعي أني أردتها بغير برهان من نص كلامي الذي كتبته .

ثم كرر الأستاذ العلمي أن الذي جاء في كلمتي إنما هي أشياء ألقيت إلى فحكيتها بلا تحقيق ولا روية ، أو ألقيت إلى فاعتقدتها كل الحقّ وأغفلت ما وراءها . وأظن أيضاً أن هذا شيء غير لائق به أن يقوله ، فضلا عن أن يكتبه . ولم أكن أظن أن الأستاذ العلمي يجترىء على أن يصفني بأني أذُن تصرفه عن الحق صداقة صديق أو عداوة عدو ، ولكنه فعل ، فلا أقل من أن أجزيه بالصفح عنه إكراماً لصديقي الأستاذ محمد بن الحسن الوزّاني ، فهو رسوله وسفيره والنائب عنه .

ثم رأيت الأستاذ أكرمه الله يزعم أني بما كتبت إنما كنت أحاول أن أحدث في الائتلاف الوطني المغربي « ثلمة » وأن ألقي حوله « بذرة من بذور الشقاق » . وهذا شيء كثير ، ولكني أعود فأصفح عن الأستاذ ، لا لشيء إلا لأني أترك الحكم في هذا الأمر لمن يقرأ فيفهم ، وما أظن أحداً ممن يطلع على ما كتبت يستطيع أن يقول إني « حاولت » هذا الذي زعمه الأستاذ .

ثم رأيت الأستاذ يقول : « ولعلي لا أكون فضولياً إن زعمت أن الذين ذكرهم الأستاذ شاكر من زعماء تونس والجزائر ليسوا معه على الرأي الذي نسب إليهم » ، وأنا لم أنسب إليهم شيئاً قالوه إلا قولهم « لا مفاوضة إلا بعد الاستقلال » ، وليس يهمني أن يكون الأستاذ العلمي فضولياً أو غير فضولي ، ولكن الذي يهمني ويهمّ قراء الرسالة وسائر العرب والمسلمين هو أن الذي حكيت عن زعماء تونس والجزائر صحيح قد اتفقوا عليه وقيدوه بالكتابة كما جاء في بيان سمو الأمير الجليل محمد بن عبد الكريم الخطابي الذي نشره في صحيفة الأهرام . وقد جاء فيه أن الأمير أعزّه الله خبر جميع « رؤساء الأحزاب المغربية ومندوبيها » فاتفق رأيهم على تكوين « لجنة تحرير المغرب العربي » من كافة الأحزاب الاستقلالية في كل من تونس والجزائر ومراكش على أساس مبادىء الميثاق التالي : ثم جاء في نص هذا الميثاق « د — لا غاية يسعى لها قبل الاستقلال — هـ — لا مفاوضة مع المستعمر في الجزئيات ضمن النظام الحاضر — و — لا مفاوضة إلا بعد إعلان الاستقلال » وقد وقع هذا الميثاق جميع من ذكرتهم في كلمتي ومن لم أذكرهم من رجال الأحزاب المغربية في تونس والجزائر ومراكش ، ومن بينهم الأستاذ محمد العربي العلمي ، والأستاذ الناصر الكتاني نيابة عن حزب الشورى والاستقلال .

والعجيب الذي لا يقضى منه عجب هو أمر الأستاذ العلمي ، فقد كتبت كلمتي للرسالة بعد أن قرأت في الأهرام (الاثنين ٥ يناير ١٩٤٨) تحت عنوان « محاولة جديدة للتوفيق بين فرنسا والمغرب » ، وقد جاء في هذا النبأ ما نصه . « ويقول الحزب في مذكرته إنه يعتزم تحقيق المطالب الوطنية وهي استقلال البلاد — في نطاق وحدته الجغرافية والسياسية ، وفي دائرة ملكية دستورية — من طريق المفاوضات ، والاتجاه بالمغرب في مرحلة انتقال تسمح له بأن ينظم شئونه تنظيماً حراً وبأسرع الطرق إلى تحقيق سيادته التامة واستقلاله المضمونين بمعاهدة تحالف وصداقة تبرم في ظل الحرية والمساواة بين المتحالفين . ويمكن تهيئة الجو السياسي الملائم لتحقيق ما تقدم ، بأن يعلن رسمياً باسم فرنسا حق الشعب المغربي في تدبير شئونه في وقت قريب ، وبأن تعتبر مصالح المغاربة ذات أسبقية في بلادهم ، مع الصيانة التامة لسيادة البلاد واستقلالها الوطني » .

هذا ما جاء في المذكرة التي قدمها حزب الشورى والاستقلال

إلى الجنرال جوان المقيم الفرنسى ، وهو صريح فى النص على تحقيق « استقلال البلاد من طريق المفاوضات » ، وهذا هو الذى دفعنى إلى كتابة ما كتبت عن حزب الشورى والاستقلال ، وهو الذى دفعنى إلى أن أتوسل إلى الصديق محمد بن الحسن الوزانى « أن يفيء إلى ما فيه مرضاة الله ، وما فيه خير بلاده وخير أمته ، وأن يدع فرنسا بشرّ النظرين ، لا يقربها إلا مقاتلا مجاهداً رافعاً باسم بلاده وحريتها وكرامتها واستقلالها » ، كما جاء فى آخر كلامى . وقد تحدث الأستاذ العلمى إلى مندوب الأهرام بما يطابق هذا المبدأ ، بيد أنى رأيته فى اليوم الثانى يوقع على ميثاق لجنة التحرير الذى ينص نصاً صريحاً على أنه لا مفاوضة إلا بعد إعلان الاستقلال . فهذا تناقض بين لا ينقضى منه العجب ، كما لا ينقضى عجب القارىء حين يقرأ كلمته فى الرد علىّ فيراه يقول إنى أزعم « أن زعماء تونس والجزائر فى القاهرة يرون رأى علال الفاسى فى القعود وعدم المفاوضة » ، ثم قوله إنه يؤكد لى « أن فكرة لا مفاوضة هذه إنما نشأت منذ قريب لا أجد داعياً لاشتغال قراء الرسالة بها » ، ومعنى ذلك أنه يرى أن عدم المفاوضة قعود عن الجهاد ، وأن كلمة « لا مفاوضة » كلمة مستحدثة لا عهد لحزب الاستقلال ولا لحزب الشورى والاستقلال بها ، ثم يختم مقاله بأن يؤكد لى بأنه « لن يدخل فى أية مفاوضات إلا بعد إعلان الاستقلال » ! ! فهذا تناقض مُرّ شديد المرارة .

وأنا لا أكتب هذا لأرد على الأستاذ العلمى ، فإن هذا التناقض العجيب المر الشديد المرارة ، جعلنى أرى أن لا فائدة من الرد ، ولكنى آثرت أن أعرض على القراء شيئاً كنت أخشى أن يفوتهم الاطلاع عليه ، وهم فى حاجة إلى الاطلاع على مثله .

وأما ما جاء فى كلامه من ذكر فلان وفلان من رجال المغرب ، فلست أنبرى ، ولا يحق لى أن أنبرى ، للدفاع عنه ، لأنى كما قال الأستاذ : « غير متفطن إلى أنى أتحدث عن بلاد لم أرها ، وليس لى من أسباب العلم بها وبأهلها إلا القليل أو ما دون القليل ! » .

بقى شىء واحد يشق على مثلى أن يرضى عنه ، وهو إقحام الأستاذ لأسد الريف الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابى فى معرض هذا التناقض المر الشديد المرارة . فهذا البطل الذى نشأنا منذ الصغر ونحن نمجد اسمه ، ونسمو بأبصارنا إليه ، ونحوطه بقلوبنا وإعاننا ، ونجعله المثل الأعلى للعربى الأبى الذى لا يقبل ضيماً ولا يقيم على هوان ، هو نفسه الذى علمنا بفعله لا بلسانه أنه « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء والاستقلال » . فقد هبّ أسد الريف وانطلق يجاهد بالسيف ، وأبى أن يسلم للفرنسيس والإسبان شيئاً إلا سيفه بعد أن تقطعت أسباب الجهاد بالسيف ، وأعرض عن كل معاهدة بينه وبين الفرنسيس والإسبان ، واحتمل بلاء النفى والتعذيب صابراً راضياً مستعيناً بالله على أعدائه . أفلم يكن مما يرضى الفرنسيس والإسبان أن يهادنهم هذا الأسد ويفاوضهم ويأخذ منهم شيئاً ويسكت عن أشياء ؟ بلى ، لقد كان يرضيهم ولا شك ، ولكنه لم يفعل ، فمعنى ذلك كما فهمناه وكما فهمه الناس هو أن أسد الريف يرى رأياً واحداً هو أن « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء والاستقلال » ، ولذلك احتمل ما احتمل ، وصبر صبر المؤمنين الذين لا يفتنهم عن الحق عذاب ولا نفى ولا تشريد . وإذا لم يكن الأستاذ العلمى قد فهم هذا من بطولة أسد الريف ، فليحدثنا إذن ماذا فهم ؟ وفيم كان صبر أسد الريف وبطل العرب على البلاء الغليظ عمراً طويلا تحيا فيه رجال وتموت رجال ؟ وفيم كان جهاده وقتاله واحتماله رؤية أبنائه وهم يسقطون فى ميدان الوغى بين يديه ؟ أفعل كل ذلك ليفاوض ، فيأخذ شيئاً ويمضى عن أشياء ؟ حاشا لله .

أما الأستاذ محمد بن الحسن الوزانى ، فأنا لم أرده بإساءة كما أراد الأستاذ العلمى أن يقول ، بل كان كل كلامى منصباً على المبدأ الذى جاء فى المذكرة المرفوعة إلى المقيم الفرنسى الجنرال جوان ، وهو مبدأ المفاوضة فى الاستقلال ، وهو مبدأ فاسد لن يسكت قلمى عن هدمه وتقويضه ، ولو قال به أعز الناس على وأكرمهم فى قلبى ، وهو عندى مذهب أقلية ، ولو قالت به أمة بأسرها . وسأبقى ما حييت أدعو الأمم التى ابتليت بالاستعمار إلى مبدأ واحد هو أن « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء والاستقلال » ، فهو عندى مذهب أكثرية ، ولو لم يقل به إلا فرد واحد طريد شريد لا يجد فى الأرض مكاناً يؤويه ، أو عشيرة تنصره ، أو أذناً تسمعه . وكل حزب يدعو إلى المفاوضة ، فهو عندى حزب بغير شعب ولو تبعته الجماهير المضللة ، وكل زعيم يدعو إليها فهو زعيم